

دالت دولة الشعر

للأديب هلال أحمد شتا

تصاحب هذه الحقيقة المرة رأسى منذ زمن بعيد ، ويقوم
بيني وبين نفسي من أجلها جدال عنيف ؛ فلا أنا قادر على أن
أقلتها لتجد لها مكاناً عند غيري ، ولا على أن أدعها تقض
مضجى وتلهب رأسى . . . وليس شك في أتى تركتها تودقني
طوال هذا الزمن ، فلم أفض بها إلى مثل هذه السطور ، خوفاً
على نفسي وإشفاقاً وفرقاً . . . فكلمة تمثل في خيالي وصح في
ذهني أن مئات من الناس يقفون على هذه الصناعة — صناعة
الشعر — ويخلصون لها ، ويؤمنون بها ، ترددت في الكتابة ،
ثم أحجمت . . .

على أتى — وقد آمنت بهذه الحقيقة منذ كان شوقي قائماً
بيننا يملأ الدنيا صدحا وتغريداً ، ومنذ كان غيره من فحول
الشعر لا يزالون في الميدان صوالين جوالين — أحسبني اليوم
قادراً على أن أبوح بما آمنت به ، بعد أن خلت عرائن الأسود
إلا من الأشبال ، وبعد أن تقدم بنا العصر بضع خطوات
كفيلة بأن تقضى على دولة الشعر أى قضاء . . .
ذلك أن الشعر لم يصبح مما يسبغ ذوق عصرنا هذا ، ولا
أصبح قادراً على أن ينهض على قدميه أو يواصل سيره في
سبيل البقاء . . . وسأحاول على هذه الصفحات أن أبسط ذلك
بعض البسط ، مترقياً في محاولتي عازفاً عن المبالغة . وفي
يقيني اننى سأخرج من هذه الكلمة المأدبة ، وإلى جانبي غير
قليل من القراء الكرام . . . فأما الشعراء والمؤمنون بهم ،
فلمست أخشى اليوم نقمتهم أو أسفهم عما عساهم يفعلون .

ولقد يدرك القارىء أنى لا أحاول أن أتقص من قدر
الشعر القديم أو أكفر برسالته ، فأنا عن مثل ذلك عزوف
عفيف . . . ولكن الذى أقول : هو أن رسالة الجمال والفن
في ذلك الشعر القديم ليست خالدة ولا باقية على الأيام ؛
وبحسب الشعراء الأقدمين أنهم قاموا على تأدية هذه الرسالة
في عصورهم وأزمانهم ، وأنهم صوروا بشعرهم صوراً بهرت

نفوس ذويهم وأقوامهم ومعاصريهم ؛ بل إن تقدير الزمن
قد امتد بآثارهم عصوراً أخرى غير تلك العصور . . . ولكن
تأجهم هذا لم يعد راوياً لظمأننا نحن إلى الجمال ، مصوراً في
صور تهز نفوس أبناء هذا العصر الحديث الناظرين إلى الحياة
بغير منظار السادة الأولين . . . وكل مابقى لنا من آثار ذلك
السلف الكريم لا يعدو أن يكون ثروة لفظية ولغوية تقوم
منا اللسان وتبسط أمامنا سبل الحديث المستقيم ، ولا يعدو
أن يكون موضوعاً لدراسات أدبية ، أو اجتماعية ، أو نفسية ،
يفيد منها التاريخ ، ويفيد منها رواد الأدب والباحثون في
حياة الجماعات الأولى . . . كيف كانت ، وكيف سارت بها
السنون نحو الرقي والكمال ، أو نحو التدهور والقعود

وهذه اللغة العربية التى جمعت على هيكليها شعرباً وقبائل في
شبه الجزيرة ، كانت في حاجة إلى الشعر وهى ما زالت طفلة
تحبو ، شأنها في ذلك شأن كل اللغات اليافعة القريبة المولدة ؛
فالشعر يكاد أن يكون هو المظهر الأواحد للأدب أو الفن في
البيئات الأمية التى تتقطع فيها أسباب الكتابة والتدوين .
وكل جماعة من الجماعات الأمية محتاجة أشد الحاجة إلى وسيلة
تسجل بها خواطرها المشتركة ، وتعبّر عن مشاعرها ، وتحدث
بمفاخرها ؛ ولا بد من أن تكون هذه الوسيلة قادرة على
إذاعة رسالتها بين الأفراد ، وحثهم على أن يتلقوها ؛ ولا
يستطيع كل ذلك إلا الشعر ، فإن اتزانته ، وتقفيته ، وموسيقاه ،
تسوقه إلى ذاكرة سامعيه من أيسر طريق وأقصد سبيل

ولا شك في أن علم الناس بالقراءة والكتابة — بعد ذلك —
يحمل عن كاهل الشعر بعض هذه الاعباء ، ويحد كذلك من
سلطانه شيئاً ، ويسلبه بعض نفوذه العريض ، ولكنه يوجهه
توجيهاً سامياً نحو الفن الرفيع ، وتلنس ألوان الجمال ، التى تختفى
في ثنايا الوجود ، وتتوارى وراء أغشية الجمود

على أن الشعر لا يمكن أن يكون متفرداً بهذا التوجيه
الجديد الذى دفعته إليه معرفة الناس القراءة والكتابة ،
لأن هذه المعرفة خلقت النثر الواسع الأجواء ، الذى يلعب
بسائر فنون القول ، والذى أصبح بعد قليل أقدر عليها من
الشعر وأقوى ساعداً . . . ولست بحاجة إلى أن أثبت قدرة النثر على
التعبير ، وتفوقه على الشعر في هذا السبيل . . . فذلك أمر بدى

ولن يجد الكاتب الذي يسجل خواطره، أو يترجم أحاسيسه، أو يعبر عما يختلج في ذهنه من المعاني - أفسح من النثر مجالاً، ولا أوسع ميداناً لقلبه الجوال. ولن يتقيد فيما يكتب بوزن يتحتم عليه أن يراعاه، ولا بقاءية تأخذ بخناق قلبه أخذاً وأخشى أن يتحدث المفتونون بالشعر - في هذا المجال -

عن روحانية الشعر، وسمو أجوائه، وروعة أخيلته، وفتنة موسيقاه، وما إلى ذلك مما يجيدون فيه الحديث؛ وألا يدركوا أن روحانية المعنى، وسمو الجور، وروعة الخيال، ليست قاصرة على الشعر ولا هي وقف عليه؛ فما أجمل ما يكتب الناثرون أصحاب النفوس الشاعرة، وما أروع ما ينتجون.. وفي جنبات سطورهم المنشورة تسفر الفتنة الخالدة التي تلعب بالمشاعر لعباً.. ولن يسمى إلى هذه الفتنة الرائعة أنها محاطة بجلال الصمت، وأنها عارية عن موسيقى الشعر التي لم تعد إليها بحاجة، فلقد كانت هذه الموسيقى تهز النفوس يوم كانت النفوس لا تزال على فطرتها طفلة رخوة؛ ولكنها اليوم لم تهز نفوساً تنصت كل يوم لموسيقى الأوتار.

لقد دار الزمن دورة قصيرة المدى، فاذا الشعر يصبح قاصراً عن أداء رسالة الفن والجمال، التي وجهه إليها علم الناس بالقراءة والكتابة؛ وليس عمر الشعر العربي الصحيح الذي أدى رسالته هذه فأحسن الأداء. سوى لمحة خاطفة من عمر الزمان، فلقد وقف بعد ذلك حيناً فأطال الوقوف، ولم يخط إلى الأمام خطوة واحدة، بل إنه سار إلى الوراء خطوات وخطوات، ليصبح ترديداً معوجاً لما قال الأقدمون

ولقد ذهب الباحثون يتلصسون أسباب وقفته، ويخلفون المماذير، وراحوا يوغلون في مسالك من القول متشعبة لا تنتهي إلى مصير؛ يضرب الآكثرون منهم على وتر واحد هو وثر الخطوب السياسية التي هدت كاهل العرب والعربية والتي طوحت بآثارهم إلى مهاوى الفناء.. ومهما يكن في ذلك من الصديق أو سلامة المنطق، فإنه لا ينهض سيباً لوقفه الشعر العربي في أيامنا هذه التي شملت فيها موجة من الرقي في مناحي التفكير جميعاً، إلا ناحية الشعر.. والتي بلغ ثمرنا فيها مكاناً فوق مكان الأولين

وفي يقيني أن وقفة الشعر هذه، وتحاذله، وسيره نحو الفناء، لا سبب له سوى أنه قد أدركته الكهولة، فلم يبق ثمة

أمل في شفائه من أهوال السنين التي تستشرى اليوم في عظامه وخلاياه، والتي سوف تحيله أثراً وذكراً. فليست عقولنا كهلة ولا مريضة، وإنما الشعر هو المريض المهيض؛ وما أجذب منا القرائح ولا زابلتنا خصوصية الخيال، وإنما الشعر هو الذي يضيق عما خلقت قرأتنا المصقولة بمعول التفكير الحديث، من آفاق واسعة ومدودة الأطراف. وهامم الأوريون - وهم من تحدث معجزات العصر بعقريتهم ونبوغهم في شتى جوانب التفكير، وسائر ضروب الفن الجميل - قد أدركوا منذ زمن بعيد قصور الشعر وضيق ذات نفسه، وتوجه شعراؤهم إلى ألوان من القصة والمسرحية وغيرها. وها هو شعرهم أخذ سمتة نحو الهزيمة القاتلة والفناء الذريع.

ديلوج أن شعراءنا المحدثين قد آمنوا بهزيمة الشعر فيما بينهم وبين أنفسهم - ولومن حيث لا يشعرون - ويلوح كذلك أن جهود شوقي الأخيرة في سبيل المسرحية الشعرية كانت مظهراً من مظاهر هذا الايمان. وإننا لنلن أن التثرفي نتاج العقاد عشرة أضعاف الشعر أو يزيد، وأن القصة وحدها والمقالة القصيرة هما قبله جهود المازني جميعاً - وقد كان شاعراً -

وأحد الله على أن شعراءنا الشبان، أمثال: ناجي، والحفيف، وفتحى موسى، والطرابلسي، وغيرهم، قد وجهوا عنايتهم إلى القصة وما إليها من فنون الكتابة والبحث، قبل أن يبعثر الشعر أيامهم الغر، وهي أعز علينا من أن تلقى في الهراء..

ولا حاجة بعد هذا إلى القول بأن دولة الشعر قد دالت، فذلك ما انتهت إليه، وما أظن القراء الامتنين إليه أيضاً.. وإذا كان الشعر قد استطاع أن يحافظ على بقائه طوال هذه السنين، وأن يمارك الزمن قتيلاً وكهلاً، فلن يستطيع البقاء في عصر الطباعة والصحافة، ولن يستطيع البقاء في عصر القصة - وقد سلبت ما تبقى له من بعض الفتنة والجمال.

ولكنني لن أنسى أن أقول إن نوعاً واحداً من الشعر لا يزال قادراً على البقاء، هو شعر الفناء، ليكل جانباً من فن الموسيقى، كما يكمل أدب المسرحية فن التمثيل.

ويستطيع الشعراء بعد ذلك أن ينظموا لأنفسهم ما يشاءون، وأن يقرأوا لأنفسهم كذلك ما يشاءون.. فأما المجد الأدنى، وأما رسالة الجمال والفن، فليبحثوا عنهما من طريق غير هذه الطريق.. هلال أحمد شتا

بمجلس المبعوث